صَرْخَةُ مَكْلُومٍ

إِنَّ هَذِهِ الكَلِمَاتِ مَا هِيَ إِلَّا كَلِمَاتٌ أَرَدْتُ لَـهَا أَنْ تَخْرُجَ هَادِئَةً، فَإِذَا بِهَا تَنْفَلِتُ مِنْ بَيْنَ أَضْلُعِي كَالصَّرْخَةِ .. صَرْخَةُ المَكْلُومِ عَلَىٰ عِزٍّ مَاضٍ يَتَبَخَّرُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِينَا أَمَامَ أَعْيُنِنَا، وَالنَّاسُ فِي لَـهْوِهِمْ سَادِرُونَ .. يَعْبَثُونَ وَيَضْحَكُونَ، وَالنَّارُ مِنْ حَوْلِـهِمْ تَأْتِي عَلَىٰ الأَخْضَرِ وَاليَابِسِ، فَلَا يُحَرِّكُونَ تُجَاهَهَا سَاكِنًا كَأَنَّهُمْ مُخَدَّرُونَ .. مُنَوَّمُونَ، فَوَجَدْتُ نَفْسِي أَصْرُخُ بِهَذِهِ الكَلِمَاتِ الَّتِي مَا أَبْغِي مِنْ وَرَائِهَا إِلَّا أَنْ نَفِيقَ مِنْ سُبَاتِنَا، وَنَرَىٰ مَا يُرَادُ بِنَا ويُحَاكُ حَوْلَنَا قَبْل ﴿فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص/ ٣].

إِنَّنِي أَصْرُخُ بِهَذِهِ الكَلِمَاتِ «الهَادِئَةِ» مِنْ قَلْبٍ مُفْعَمٍ بِالحُبِّ تُجَاهَ قَوْمِي، وَالخَوْفِ عَلَيْهِمْ مِنْ مَصِيرٍ مَحْتُومٍ لِمَنْ يَمْضِي فِي طَرِيقِ الهَلَاكِ الَّذِي هُمْ فِيهِ سَائِرُونَ، وَمَا أَكْتُبُ هَذِهِ الكَلِمَاتِ إِلَّا إِنْقَاذًا لِنَفْسِي وَإِخْوَانِي المُسْلِمِينَ مِنَ الضَّيَاعِ، وَخُرُوجًا مِنَ التِّيهِ وَالحَيْرَةِ، فَإِنَّ الخَطْبَ جَسِيمٌ، وَالهَوْلَ عَظِيمٌ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ تَضِيقَ صُدُورُنَا بِالنَّقْدِ؛ لأَنَّهُ مِنَ القِيَامِ بِالقِسْطِ وَالشَّهَادَةِ للهِ اللَّذَيْنِ أُمِرْنَا بِهِمَا وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِنَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النِّساء/ ١٣٥]،

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ٨﴾ [المَائِدَة/ ٨].

وَمِنْ غَيْرِ هَذَا النَّقْدِ وَهَذِهِ الْمُوَاجَهَةِ وَهَذَا التَّنَاصُحِ: كَيْفَ سَيَعْرِفُ الْمُخْطِئُ خَطَأَهُ؟ .. وَكَيْفَ سَيُصَحَّحُ الْمُعْوَجُّ؟ .. وَكَيْفَ يُقَوَّىٰ الضَّعِيفُ؟ وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:(١) «**الْمُؤْمِنُ مِرْآةُ الْمُؤْمِنِ، وَالْمُؤْمِنُ أَخُو الْمُؤْمِنِ**».

***

إِنَّ الكَيْلَ قَدْ طَفَحَ، وَالفَسَادَ قَدِ اِسْتَشْرَىٰ فِي كُلِّ مَنَاحِي الحَيَاةِ -إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ؛ فَلِذَا كَانَ لَابُدَّ مِنْ تَسْلِيطِ الضَّوْءِ عَلَيْهِ وَوَضْعِهِ تَحْتَ المِجْهَرِ، وَأَنْ نُوَاجِهَ أَنْفُسَنَا بِحَقِيقَتِهِ -بِوُضُوحٍ وَبِصَرَاحَةٍ- فِي مُحَاوَلَةٍ جَادَّةٍ وَخُطْوَةٍ مُنْضَبِطَةٍ وَرَغْبَةٍ أَكِيدَةٍ فِي الإِصْلَاحِ.

نَعَمْ ... قَدْ تَكُونُ بَعْضُ الكَلِمَاتِ حَادَّةً، وَلَكِنَّهَا كَمِبْضَعِ الجَرَّاحِ لَابُدَّ أَنْ تَسْتَأْصِلَ الوَرَمَ الخَبِيثَ الَّذِي إِذَا اسْتَشْرَىٰ قَضَىٰ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ .. فَمِنَ الرَّحْمَةِ -أَحْيَانًا- اسْتِخْدَامُ هَذَا المِبْضَعِ، وَبَتْرُ العُضْوِ الَّذِي سَرَتْ فِيهِ «الغَرْغَرِينَةُ»،

(١) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.

وَتَطْهِيرُ الجِسْمِ مِنَ القِيحِ وَالصَّدِيدِ.

نَعَمْ .. مِبْضَعُ الجَرَّاحِ شَدِيدٌ، وَلَكِنْ أَشَدُّ مِنْهُ أَنْ نَرَىٰ «السُّوسَ» يَنْخُرُ فِي العِظَامِ الْمُتَمَاسِكَةِ القَوِيَّةِ الفَتِيَّةِ حَتَّىٰ تَتَهَالَكَ، أَوْنَرَىٰ الفَسَادَ يَسْتَشْرِي حَتَّىٰ يَصِلَ إِلَىٰ «أُسِّ» البِنَاءِ فَيَنْهَارُ .. فَتَنْهَارُ مَعَهُ كُلُّ القِيَمِ وَالمَبَادِئِ وَالْمُثُلِ وَالأَخْلَاقِ الَّتِي نَعِيشُ لَـهَا وَبِهَا!

إِنَّنَا لَابُدَّ أَنْ نُوَاجِهَ أَنْفُسَنَا بِأَمْرَاضِنَا بِكُلِّ صَرَاحَةٍ وَوُضُوحٍ -وَلَا نَكُونُ كَالنَّعَامَةِ الَّتِي تَدْفِنُ رَأْسَهَا فِي الرِّمَالِ، وَتَظُنُّ أَنَّ الصَّيَّادَ لَا يَرَاهَا طَالَـمَا أَنَّهَا لَا تَرَاهُ- وَذَلِكَ إِنْ أَرَدْنَا أَنْ نَسِيرَ فِي طَرِيقِ الشِّفَاءِ.

قَدْ يَكُونُ الدَّوَاءُ مُرًّا، وَقَدْ يَكُونُ الفِطَامُ مِنَ الشَّهَوَاتِ شَاقًّا عَلَىٰ النُّفُوسِ، وَلَكِنْ لَابُدَّ مِنْ ذَلِكَ إِنْ أَرَدْنَا النَّجَاةَ، أَوْ أَرَدْنَا أَنْ نُعِيدَ لأُمَّتِنَا مَجْدَهَا التَّلِيدَ الَّذِي انْحَسَرَ عَنْهَا بِسَبَبِ بُعْدِنَا عَنِ التَّمَسُّكِ بِالأَسْبَابِ الْمُوَصِّلَةِ إِلَىٰ المَجْدِ وَالدَّرَجَاتِ العُلَىٰ الَّتِي تَمَسَّكَ بِهَا -مِنْ قَبْلُ- أَسْلَافُنَا العِظَامُ يَوْمَ أَنْ سَادُوا الدُّنْيَا وَأَضَاءُوا مِشْعَلَ الحَضَارَةِ فِي أَرْجَائِهَا، وَحَطَّمُوا أَغْلَالَ الجَاهِلِيَّةِ الَّتِي كَانَ العَالَمُ يَرْسُفُ فِيهَا وَيَئِنُّ مِنْ وَطْأَتِهَا؛ فَأَخْرَجُوا النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ، وَأَدَّبُوا الأَكَاسِرَةَ وَالقَيَاصِرَةَ، وَكُلَّ مَنْ صَعَّرَ خَدَّهُ مِنَ الجَبَابِرَةِ وَطَوَاغِيتِ الأَرْضِ ..

فَنَقَلُوا النَّاسَ مِنْ عِبَادَةِ الخَلْقِ إِلَىٰ عِبَادَةِ رَبِّ الخَلْقِ، وَمِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَىٰ سِعَةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمِنْ جَوْرِ الأَدْيَانِ إِلَىٰ عَدْلِ وَسَمَاحَةِ الإِسْلَامِ،

وَأَسَّسُوا مَعَانِي الكَرَامَةِ وَالعَدَالَةِ وَالحُقُوقِ وَالحُرِّيَّةِ وَالمَسْؤُولِيَّةِ، وَضَمَنُوا لِلْبَشَرِيَّةِ كُلَّ أَنْوَاعِ الخَيْرِ وَالسَّعَادَةِ وَالحُرِّيَّةِ وَالرَّخَاءِ، وَارْتَقُوا إِلَىٰ قِمَّةِ النُّبْلِ وَالشَّرَفِ وَالكَرَامَةِ.

وَشَهِدَ العَالَمُ عَلَىٰ أَيْدِيهِمْ ازْدِهَارًا خُلُقِيًّا وَرُوحِيًّا وَمَادِّيًّا لَمْ يَشْهَدْهُ مِنْ قَبْلُ، وَقَدْ بَلَغَ الدِّينُ الإِسْلَامِيُّ الدَّرَجَةَ البَالِغَةَ مِنَ الكَمَالِ وَالتَّمَامِ وَالإِحَاطَةِ وَالشُّمُولِ وَالوُضُوحِ وَالظُّهُورِ.

وَشَهِدَ العَالَمُ أُمَّةً هِيَ خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ؛ بِقِيَمِهَا وَمَبَادِئِهَا وَأَخْلَاقِهَا الَّتِي لَا يُعْرَفُ لَـهَا مَثِيلٌ عَلَىٰ مَرِّ العُصُورِ ..

أُمَّةٌ لَـهَا كِيَانٌ خَاصٌّ وَرَابِطَةٌ مُمَيَّزَةٌ تَرْبِطُ بَيْنَ أَفْرَادِهِمْ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ وَتَرْبِطُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ وَخَالِقِهِمْ، وَلَـهُمْ وِجْهَةٌ مُوَحَّدَةٌ «وِحْدَةٌ فِي الهَدَفِ، وَوِحْدَةٌ فِي المَسَارِ» ..

أُمَّةٌ تَعْرِفُ رَبَّهَا وَتَعْرِفُ طَرِيقَهَا الَّذِي رَسَمَهُ لَـهَا خَالِقُهَا وَتَشْعُرُ بِوَاجِبِهَا تُجَاهَ أَفْرَادِهَا وَتُجَاهَ جَمِيعِ البَشَرِ مِنْ ضَرُورَةِ الأَخْذِ بِأَيْدِيهِمْ إِلَىٰ اللهِ .. طَرِيقَ الهُدَىٰ وَالتُّقَىٰ، وَالطُّهْرِ وَالنَّقَاءِ، وَالقِيَمِ وَالمَبَادِئِ ..

أُمَّةٌ مُقَدِّرَةٌ لِقِيمَتِهَا وَقِيَمِهَا الَّتِي تَقُومُ عَلَىٰ مَعَانِي الحَقِّ وَالعَدْلِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ تَسُودَ رُبُوعَ المَعْمُورَةِ ..

أُمَّةٌ تَشْعُرُ بِأَنَّهَا أَمِينَةٌ عَلَىٰ نَشْرِ وَحِرَاسَةِ كُلِّ القِيَمِ وَالمَبَادِئِ وَالأَخْلَاقِ الَّتِي جَاءَ بِهَا وَنَادَىٰ بِهَا الإِسْلَامُ، مُتَوَاصِيَةً فِيمَا بَيْنَهَا بِالحَقِّ وَالصَّبْرِ فِي وُدٍّ وَتَآخٍ وَتَعَاوُنٍ عَلَىٰ البِرِّ وَالتَّقْوَىٰ.

هَكَذَا كَانَ أَسْلَافُنَا يَوْمَ أَنْ تَمَسَّكُوا بِأَهْدَابِ هَذَا الدِّينِ وَعَمِلُوا بِكُلِّ مَا فِيهِ، فَهَلْ نَكُونُ -وَيَا لَلْأَسَفِ وَالأَسَىٰ- «شَرَّ خَلَفٍ لِخَيْرِ سَلَفٍ»!!!

***

إِنَّهُ الحَنِينُ إِلَىٰ المَاضِي السَّعِيدِ .. إِلَىٰ أَصْلِنَا التَّلِيدِ .. فَنَرَىٰ فِيهِ الرَّجَاءَ المَحْضَ، وَالأَمَلَ الوَاعِدَ، وَالنُّورَ الهَادِي؛ بَعْدَ أَنْ غَرَقَ العَالَمُ كُلُّهُ فِي بَحْرِ الضَّيَاعِ، وَغَدَا هَائِمًا فِي صَحْرَاءِ اليَأْسِ، وَنَامَ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَوْقَ أَشْوَاكِ الأَلَمِ، فَنَسْتَقِي مِنْ هَذَا المَاضِي شُعْلَةً تُنِيرُ لَنَا الطَّرِيقَ، وَتَشْحِذُ الهِمَمَ، وَتُقَوِّي العَزَائِمَ فِي هَذَا الوَقْتِ العَصِيبِ الَّذِي ادْلَهَمَّ فِيهِ الخَطْبُ، وَازْدَادَ الخَرْقُ عَلَىٰ الرَّاقِعِ، وَتَكَالَبَ عَلَيْنَا الأَعْدَاءُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ كَمَا تَتَكَالَبُ الأَكَلَةُ عَلَىٰ قَصْعَتِهَا ...

إِنَّنَا نُرِيدُ تَنَاغُمًا وَانْصِهَارًا بَيْنَ مَاضِينَا وَتَارِيخِنَا المَجِيدِ وَبَيْنَ وَاقِعِنَا المَرِيرِ، فَتَمْتَزِجُ العِبَرُ وَالدِّلَالَاتُ المُسْتَلْهَمَةُ مِنَ التَّارِيخِ بِحَرَكَةِ الوَاقِعِ؛ فِي نَسِيجٍ مُتَآلِفٍ مِنَ القِيَمِ وَالمَنَاهِجِ وَالتَّصَوُّرَاتِ وَالأَفْكَارِ الَّتِي هَيْمَنَتْ عَلَىٰ السُّلُوكِ الإِنْسَانِيِّ لِلْفِئَةِ الَّتِي آمَنَتْ بِاللهِ عَلَىٰ يَدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَثْمَرَتْ خَيْرَ أُمَّةٍ

أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، فَغَيَّرَتْ وَجْهَ التَّارِيخِ.

***

فَعَلَيْنَا أَنْ نَبْنِيَ الحَاضِرَ بِقِيَمِ وَمَبَادِئِ المَاضِي السَّعِيدِ؛ حَتَّىٰ يَعُودَ لأُمَّتِنَا عِزُّهَا المَسْلُوبُ، الَّذِي اسْتَطَاعَ المُسْتَعْمِرُ الكَافِرُ -بِوَسَائِلِهِ المَاكِرَةِ، وَخِيَانَةِ بَعْضِ أَبْنَاءِ الأُمَّةِ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لإِغْرَاءَاتِهِ وَمَعْسُولِ وُعُودِهِ، مَعَ تَقَاعُسِ عُلَمَاءِ الأُمَّةِ، وَانْغِمَاسِ عُوَامِهَا وَانْكِبَابِهِمْ عَلَىٰ الشَّهَوَاتِ- اسْتَطَاعَ هَذَا الغَشُومُ أَنْ يَسْلِبَ مِنَ الأُمَّةِ مَرَاكِزَ القِيَادَةِ، وَأَنْ يُلْقِيَ بِأُمَّتِنَا إِلَىٰ دَرْكِ التَّبَعِيَّةِ.

***

يَا لَلْمَهَانَةِ .. يَا لَلذِّلَّةِ وَالخِزْيِ وَالعَارِ!

كَيْفَ تَخَلَّتْ هَذِهِ الأُمَّةُ عَنْ مَكَانَتِهَا وَتَمَيُّزِهَا الَّذِي مَيَّزَهَا اللهُ بِهِ؟

كَيْفَ أَضْحَتِ اليَوْمَ فِي ذَيْلِ الأُمَمِ؟ ..

أَبَعْدَ هَذَا النُّمُوِّ وَالرُّقِيِّ وَالتَّقَدُّمِ وَالازْدِهَارِ؟ وَبَعْدَ أَنْ يَنْتَزِعَ أَجْدَادُنَا زِمَامَ القِيَادَةِ مِنْ دَوْلَتَيِ الفُرْسِ وَالرُّومِ، وَطَأْطَأَ لَهُمُ الجَمِيعُ هَامَاتِهِ، وَأَصْبَحَتْ أُمَّتُنَا مَحَطَّ الأَنْظَارِ وَزَهْرَةَ الدُّنْيَا رُقِيًّا وَمَدَنِيَّةً وَحَضَارَةً، وَآلَتْ إِلَىٰ شَجَرَةٍ بَاسِقَةٍ مُورِقَةٍ مُزْدَهِرَةٍ مُزْدَانَةٍ .. قَدِ اسْتَرَاحَتْ فِي ظِلِّهَا الوَارِفِ شُعُوبُ الأَرْضِ المُثْخَنَةُ بِجِرَاحِ الجَاهِلِيَّةِ وَاضْطِهَادِ وَظُلْمِ طَوَاغِيتِ الأَرْضِ وَقْتَذَاكَ .. وَدَارَتْ جَمِيعُ

الأُمَمِ في فَلَكِهَا، وَارْتَحَلَ إِلَيْهَا أَبْنَاءُ الأَقْطَارِ الْمُخْتَلِفَةِ مِنْ شَتَّى بِقَاعِ وَأَصْقَاعِ العَالَمِ يَنْهَلُونَ مِنْ عُلُومِهَا، وَيَرْتَشِفُونَ مِنْ مَعِينِهَا العَذْبِ الرَّقْرَاقِ .. وَتَقَلَّبَتِ الأُمَّةُ في أَفْوَافِ حَضَارَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ زَاهِرَةٍ مُورِقَةٍ وَارِفَةِ الظِّلَالِ، أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا في السَّمَاءِ، تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا، وَتَدَاوَلَتِ الأُمَّةُ المَجْدَ وَالسُّؤْدُدَ ...

ثُمَّ نَاخَتْ بِأَرْضِهَا رَوَاضِخُ السُّنَنِ، وَعَقَرَتْهَا خُطُوبُ الفِتَنِ، وَصَلَتْهَا نِيرَانُ المِحَنِ، وَأَرْجَفَتِ الأَرْضُ مِنْ تَحْتِ أَقْدَامِ أَهْلِهَا، وَتَزَلْزَلَ المَجْدُ التَّلِيدُ، وَانْحَسَرَ العِزُّ وَالسُّؤْدُدُ، وَاخْتَطَفَ زِمَامَ القِيَادَةِ قَوْمٌ آخَرُونَ، وَ ..... .

وَضَاعَ كُلُّ شَيْءٍ بِسَبَبِ تَقَاعُسِ أَفْرَادِ الأُمَّةِ: حُكَّامًا وَمَحْكُومِينَ؛ عُلَمَاءً وَعَوَامًّا ... فَقَعَدُوا عَنْ حَمْلِ مِشْعَلِ الدَّعْوَةِ إِلَى هَذَا الدِّينِ القَوِيمِ، وَأَعْرَضُوا عَنْ تَطْبِيقِهِ وَالعَمَلِ بِهِ وَالتَّحَاكُمِ إِلَيْهِ، وَرَكَنُوا إِلَى الدِّعَةِ وَالإِنْكِبَابِ عَلَى الشَّهَوَاتِ وَالمَلَذَّاتِ، وَسَقَطَ اللِّوَاءُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ؛ وَهُمْ يَنْظُرُونَ، وَأَلْقُوا بِأَنْفُسِهِمْ في حَمْأَةِ الذُّلِّ وَمِرْجَلِ الهَوَانِ، وَرَضُوا بِالتَّبَعِيَّةِ، بَلْ وَفُقْدَانِ الكَرَامَةِ وَالسِّيَادَةِ، وَأَصْبَحُوا هَوَاءً؛ بَلْ .. أَصْبَحُوا هَبَاءً لَا يُؤْبَهُ بِهِمْ.

وَأَضْحَتِ الأُمَّةُ مَطْمَعَ أَرَاذِلِ القَوْمِ وَسِفْلَةِ النَّاسِ، وَذَلَّتْ لِمَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الذُّلَّ وَالمَسْكَنَةَ... فَأَيُّ مَذَلَّةٍ أَشَدُّ مِنْ هَذِهِ المَذَلَّةِ؟

وَأَيُّ مَهَانَةٍ أَعْظَمُ مِنْ هَذِهِ المَهَانَةِ؟!!! ...

وَ«**البُكَاءُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَى خَسَاسَةِ الهِمَمِ**»!

فَمَا فَائِدَةُ العَيْشِ إِذَنْ فِي هَذِهِ الذِّلَّةِ؟ .. وَهَلْ لِلْحَيَاةِ طَعْمٌ وَمَذَاقٌ -عِنْدَ مَنْ عِنْدَهُ نَوْعُ حَيَاةٍ- إِلَّا طَعْمَ المُرِّ وَمَذَاقَ العَلْقَمِ؟ فَوَاللهِ! إِنْ ظَلَّ الأَمْرُ عَلَى مَا نَرَى؛ فَبَاطِنُ الأَرْضِ خَيْرٌ مِنْ ظَاهِرِهَا ! فَـ«**المَنِيَّةُ وَلَا الدَّنِيَّة**».

***

وَأَيْنَ النَّخْوَةُ؟ وَأَيْنَ الكَرَامَةُ؟ وَأَيْنَ الرُّجُولَةُ؟ .. أَيْنَ صِفَاتُ العَرَبِيِّ الأَبِيِّ الَّذِي كَانَ يُضَحِّي بِحَيَاتِهِ؛ لأَنَّهُ لَا يَرْضَى الضَّيْمَ؟.

أَمَا كَفَانَا مَهَانَةً؟ مُنْذُ مَتَى كَانَ العَرَبِيُّ يَسْتَكِينُ لِجَلَّادِيهِ حَتَّى وَلَو لَبَسُوا مُسُوحَ الضَّأْنِ؟

***

أَمَا مِنْ وَقْفَةٍ رَشِيدَةٍ أَوْ صَرْخَةٍ جَرِيئَةٍ أَمَامَ مِنْ دَنَّسَ المُقَدَّسَاتِ وَهَتَكَ المُحَرَّمَاتِ وَاسْتَبَاحَ الأَرْضَ وَالعِرْضَ؟

أَنَقِفُ مَوْقِفَ المُتَفَرِّجِ المَرْعُوبِ أَوْ مَوْقِفَ المَبْهُوتِ المَفْضُوحِ أَمَامَ تِلْكَ الهَجْمَةِ الشَّرِسَةِ لِاقْتِلَاعِ الإِسْلَامِ مِنْ جُذُورِهِ؟ ..

كَيْفَ أَضْحَتْ دِمَاءُ المُسْلِمِينَ أَرْخَصَ دِمَاءٍ فِي هَذَا العَصْرِ، بَلْ أَضْحَتْ تُرَاقُ -وَيَا لَلْأَسَى- بِيَدِ المُسْلِمِينَ وَبِيَدِ أَعْدَائِهِمْ؛ بِيَدِ المُسْلِمِينَ بِاسْمِ الجِهَادِ -زَعَمُوا،

وَبِيَدِ أَعْدَائِهِمْ بِاسْمِ الْمُثُلِ وَالْمَبَادِئِ الغَرْبِيَّةِ وَتَنْفِيذِ القَرَارَاتِ الدُّوَلِيَّةِ؟!!

وَأَصْبَحَ الْمُسْلِمُونَ –اليَوْمَ– يَئِنُّونَ مِنَ الضَّرَبَاتِ الْمُتَلَاحِقَةِ الَّتِي تُكَالُ عَلَيْهِمْ وَإِلَيْهِمْ فِي كُلِّ بِقَاعِ الأَرْضِ مِنْ جَمِيعِ قُوَىٰ الشَّرِّ.

إِنَّ الأُمَّةَ الإِسْلَامِيَّةَ بِأَسْرِهَا وَجَمِيعِ فِئَاتِهَا وَطَوَائِفِهَا مُطَالَبَةٌ اليَوْمَ قَبْلَ الغَدِ أَنْ تَرْفَعَ عَنْ كَاهِلِنَا نِيْرَ الظُّلْمِ وَذُلِّ التَّبَعِيَّةِ، وَأَنْ تَأْخُذَ عَلَىٰ عَاتِقِهَا إِرْجَاعَ العِزِّ الْمَفْقُودِ وَتَحْقِيقِ الأَمَلِ الْمَنْشُودِ، وَأَنْ تُعِيدَ لِلْإِسْلَامِ مَجْدَهُ، وَلِدَوْلَتِهِ عِزَّهَا وَشَرَفَهَا وَسُؤْدَدَهَا ..

فَعَلَيْهَا أَنْ تَفِيقَ مِنْ سُبَاتِهَا، وَتَنْهَضَ مِنْ رَقْدَتِهَا، وَتُحَطِّمَ الأَغْلَالَ الَّتِي كَبَّلَتْ مَسِيرَتَهَا.

وَهَذَا الطَّلَبُ مُوَجَّهٌ –فِي الْمَقَامِ الأَوَّلِ– إِلَىٰ كُلِّ مَنْ عِنْدَهُ بَقِيَّةٌ مِنْ عِلْمٍ وَفَضْلٍ مِنْ تَقْوَىٰ؛ أَنْ يَصْدَعَ بِالحَقِّ وَيَرْفَعَ صَوْتَهُ، وَلَوْ كَانَ وَحْدَهُ فِي الْمَيْدَانِ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [الْمُدَّثِّر/ ٣٨].

وَعَلَىٰ جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُؤَازِرُوا الدُّعَاةَ إِلَىٰ اللهِ بِحَقٍّ وَيُعِينُوهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ.

***

إِنَّنَا نَسْتَصْرِخُ كُلَّ الهِمَمِ؛ وَخَاصَّةً العُلَمَاءَ وَطُلَّابَ العِلْمِ وَأَصْحَابَ القُوَّةِ وَالشَّوْكَةِ «**فَعَلَيْهِمْ مِنَ الوُجُوبِ مَا لَيْسَ عَلَى غَيْرِهِمْ، وَالنَّاسُ لَهُمْ تَبَعٌ**» أَنْ

تُسْتَفْرَغَ كُلُّ الجُهُودِ لِلْعَمَلِ لِلإِسْلَامِ؛ فِي عَمَلٍ مُضْنٍ وَجَهْدٍ مُتَوَاصِلٍ، وَاقْتِحَامٍ لِكُلِّ العَقَبَاتِ وَتَحْطِيمٍ لِكُلِّ المُعَوِّقَاتِ؛ بِكُلِّ صَبْرٍ وَجَلَدٍ.

فَعَلَى الأُمَّةِ أَنْ تَحْمِلَ الرَّايَةَ وَتُقِيمَ حُكْمَ القُرْآنِ فِي نَفْسِهَا أَوَّلًا وَالعَالَمِينَ بَعْدَ ذَلِكَ؛ مَا اسْتَطَاعَتْ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا، وَأَنْ لَا تَرْهَبَ جُيُوشَ الكُفْرِ وَأَسَاطِيلَهُ، فَإِنَّ البَاطِلَ زَاهِقٌ لَا مَحَالَةَ، وَاللهُ نَاصِرُ أَوْلِيَاءَهُ، فَهَذَا وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الأَنبِيَاء/ ١٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَ�ٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الشُّورَى/ ٢٤]، وَلَنَكُنْ مِثْلَ أَهْلِ الإِيمَانِ الَّذِينَ قَالَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عِمْرَان/ ١٧٣]، فَاللهُ نَاصِرُ دِينَهُ وَلَنْ يَخْذُلَ جُنْدَهُ، وَاللهُ قَادِرٌ عَلَى أَخْذِ الظَّالِمِينَ وَإِهْلَاكِهِمْ بَيْنَ طَرْفَةِ عَيْنٍ وَانْتِبَاهَتِهَا وَمَا هُمْ لَهُ بِمُعْجِزِينَ، وَلَنَتَذَكَّرْ نَصْرَ اللهِ لِلْفِئَةِ المُؤْمِنَةِ القَلِيلَةِ المُسْتَضْعَفَةِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأَنفَال/ ٢٦].

وَاللهُ نَاصِرُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالغَيْبِ، وَيَحْفَظُ مَنْ يَحْفَظُهُ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ.

وَلَا يُحْرَمُ مُوَالَاةُ رَبِّهِ إِلَّا مَنْ تَرَكَ المَأْمُورَ، وَرَكِبَ المَحْظُورَ، وَصَارَ فِي رَكْبِ الشَّيْطَانِ وَمُوَالَاتِهِ.

***

وَلِنَعْلَم: أَنَّهُ لَايَنْهَزِمُ المُسْلِمُونَ؛ لِقُوَّةِ عَدِوِّهِمْ، وَقِلَّةِ عَدَدِهِمْ، وَضَآلَةِ إِمْكَانِيَّاتِهِمْ -فَحَاشَا وَكَلَّا!

وَلَكِنَّهُمْ يَنْهَزِمُونَ؛ لِضَعْفِ إِيمَانِهِمْ، وَقِلَّةِ صَبْرِهِمْ، وَخَوَاءِ يَقِينِهِمْ فِي رَبِّهِمْ.

فَوَاللهِ! لَوْ عَرِيَتْ أَيْدِيهُمْ مِنَ القُوَّةِ المَادِيَّةِ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ -بَعْدَ بَذْلِهِمْ غَايَةَ وُسْعِهِمْ- لَأَرْهَبَ اللهُ بِهِمْ عَدُوَّهُمْ، وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ، وَجَعَلَهُمْ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي المُؤْمِنِينَ.

فَاعْتَبِرُوا؛ يَا أُولِي الأَبْصَارِ!

وَاعْلَمُوا أَنَّ العَدُوَّ لَنْ يَتَمَكَّنَ مِنْكُمْ إِلَّا بِوَهْيِ بُنْيَانَكُمْ إِذَا مَا أُسِّسَ عَلَىٰ غَيْرِ تَقْوَىٰ اللهِ؛ وَكَمَا يَقُولُ **ابْنُ القَيِّمِ**: «تَاللهِ! مَا عَدَا عَلَيْكَ العَدُوُّ إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَوَلَّىٰ عَنْكَ الوَلِي، فَلَا تُظُنّ أَنَّ الشَّيْطَانَ غَلَبَ؛ وَلَكِنَّ الحَافِظَ أَعْرَضَ».

فَلَا تَنْشَغِلْ -أَخِي الحَبِيبُ- بِالعَدُوِّ وَإِمْكَانِيَّاتِهِ وَاسْتِعْدَادَاتِهِ، وَلَكِنِ انْشَغِلْ بِإِصْلَاحِ نَفْسِكَ وَمُجَاهَدَةِ الشَّيْطَانِ وَالهَوَىٰ، وَاسْتَفْرِغْ غَايَةَ الوُسْعِ فِي هَذِهِ المُجَاهَدَةِ وَالمُحَارَبَةِ، فَهَذَا هُوَ العَدُوُّ الَّذِي لَا يَفْتُرُ عَنْ مُحَارَبَتِكَ بِعَدَدِ الأَنْفَاسِ.

وَلِلْأَسَفِ؛ فَقَدْ أَغَضَّ المُسْلِمُونَ الطَّرْفَ عَمَّا يَجِبُ أَنْ يَنْتَهِجُوهُ مِنْ مُعَالَجَةِ مَا دَهَمَهُمْ مِنْ أَمْرَاضٍ كَادَتْ تَفْتِكُ بِهِمْ، وَتَعَلَّقَتْ أَبْصَارُهُمْ بِمَا لَا يُجْدِي، وَأَضْحَى الجَمِيعُ بِحِمْأَةِ الفِتَنِ يُكْوَى[1]، وَوَصَلْنَا إِلَى تِلْكَ الحَالَةِ المُتَرَدِّيَةِ الَّتِي تُحْزِنُ الصَّادِقَ وَتَحْرِقُ كَبِدَ المُخْلِصِ!.

***

وَرُغْمَ زَوَابِعِ الفِتَنِ، وَعَوَاصِفِ المِحَنِ، وَأَعَاصِيرِ الِابْتِلَاءَاتِ الَّتِي تُحِيطُ بِأُمَّتِنَا الإِسْلَامِيَّةِ فِي هَذِهِ الفَتْرَةِ العَجْفَاءِ مِنْ تَارِيخِنَا، وَفِي ظِلِّ هَذِهِ الظُّرُوفِ العَصِيبَةِ الحَرِجَةِ الَّتِي تَمُرُّ بِهَا أُمَّتُنَا، يَبْقَى فِي قُلُوبِنَا بَصِيصٌ مِنَ الأَمَلِ فِي بِدَايَةِ رِحْلَةِ العَوْدَةِ إِلَى جَادَّةِ الطَّرِيقِ، آخِذِينَ بِحَبْلِ القُرُونِ الثَّلَاثَةِ الخَيِّرَةِ الَّتِي وَقَفَتْ عِنْدَ مَا رَسَمَهُ اللهُ لَهَا مِنْ حُدُودٍ، وَانْتَهَتْ عِنْدَ مَا شَرَعَهُ لَهَا مِنْ أَحْكَامٍ، وَأَقَامَتْ عَلَى السَّبِيلِ الَّتِي أَقَامَهَا عَلَيْهَا خَالِقُهَا، وَالْتَزَمَتْ بِالحَقِّ الَّذِي جَاءَهَا مِنْ رَبِّهَا، وَفَتَحَتْ قُلُوبَهَا لِلنُّورِ الَّذِي انْقَشَعَتْ بِهِ الظُّلُمَاتُ وَاسْتَضَاءَتْ بِهِ الأَرْضُ وَالسَّمَوَاتُ وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ..

---

(١) قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥ ﴾ [الأَنْفَال/ ٢٥].

وَهَكَذَا يَجِبُ أَنْ نَكُونَ، «فَلَنْ يُصْلِحَ آخِرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَّا مَا أَصْلَحَ أَوَّلَهَا»، وَلَنْ يَكُونَ لَنَا عِزٌّ وَلَا تَمْكِينٌ وَلَا سُؤْدُدٌ إِلَّا بِمَا كَانَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ القُرُونُ الفَاضِلَةُ، فَلَا عِزَّ لِلْمُسْلِمِينَ حَتَّى يَتَحَكَّمَ الإِسْلَامُ فِي نُفُوسِنَا، وَلَأَضَاءَتْ أَمَامَنَا -حِينَئِذٍ- كُلُّ مُظْلِمَةٍ، وَلَانْجَلَتْ كُلُّ مُشْكِلَةٍ، وَلَهَانَتْ كُلُّ مُعْضِلَةٍ، وَلَتَزَايَلَتْ مِنْ صُفُوفِنَا أَسْبَابُ الخِلَافِ وَدَوَاعِي الشِّقَاقِ.

إِنَّ اللهَ قَدْ كَرَّمَ هَذِهِ الأُمَّةَ وَأَعَزَّهَا وَأَعْلَى مَكَانَتَهَا وَأَنَاطَ بِهَا حَمْلَ رِسَالَةِ الهِدَايَةِ لِلْعَالَمِينَ كَافَّةً، وَخَاطَبَهَا رَبُّهَا بِقَوْلِهِ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عِمْرَان/ ١١٠]، فَمَا نَالَتْ هَذِهِ الخَيْرِيَّةَ إِلَّا بِقِيَامِهَا بِهَذَا الوَاجِبِ المَنُوطِ بِهَا؛ وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عِمْرَان/ ١٠٤][1].

فَإِنْ تَقَاعَسَتِ الأُمَّةُ عَنْ أَدَاءِ رِسَالَتِهَا هَبَطَتْ مَكَانَتُهَا وَانْحَدَرَتْ قِيمَتُهَا

---

(١) قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ فِي «مِنْهَاج السُّنَّة» (٥/ ٢٥٣): «وَالأَمْرُ بِالسُّنَّةِ وَالنَّهْيُ عَنِ البِدْعَةِ؛ هُوَ أَمْرٌ بِمَعْرُوفٍ وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ، وَهُوَ مِنْ أَفْضَلِ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ».

وَتَكَالَبَتْ عَلَيْهَا الأُمَمُ ، فَمَا بَالُكُمْ وَقَدْ زَادَ الخَرْقُ عَلَى الرَّاقِعِ، وَابْتُلِيَتِ الأُمَّةُ بِهَذَا الوَاقِعِ الأَلِيمِ الَّذِي يَكَادُ يُجْرِفُهَا بَعِيدًا عَنِ الإِسْلَامِ، فَأَصْبَحَتِ الأُمَّةُ اليَوْمَ -إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ- تَسْتَهْجِنُ مَنْ يَأْمُرُهَا بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهَا عَنِ المُنْكَرِ، فَأَصْبَحَ المَعْرُوفُ مُنْكَرًا وَالمُنْكَرُ مَعْرُوفًا، بَلْ بَاتَ فِيهَا مَنْ يَأْمُرُ بِالمُنْكَرِ وَيَنْهَى عَنِ المَعْرُوفِ بِلَا حَيَاءٍ وَلَا مُوَارَبَةٍ وَبِلَا نَكِيرٍ!!![1].

أُمَّةٌ تَرَكَتِ الوَسَطِيَّةَ وَالمَنْهَجَ الوَسَطَ[2]، وَقَدْ خَاطَبَهَا رَبُّهَا بِقَولِهِ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البَقَرَة/ ١٤٣]، فَمَالَتْ عَنِ الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ، وَمَالَتْ إِلَى الشَّرْقِ وَالغَرْبِ، وَجَنَحَتْ إِلَى طَرِيقِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ، وَاتَّبَعَتْ سُنَّتَهُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ

---

(١) يَقُولُ ابْنُ القَيِّمِ عَنْ أَهْلِ زَمَانِهِ فِي «إِعْلَام المُوَقِّعِينَ» (ص ١٧١): «فَقَدْ دُفِعْنَا إِلَى أَمْرٍ تَضِجُّ مِنْهُ الحُقُوقُ إِلَى اللهِ ضَجِيجًا، وَتَعُجُّ مِنْهُ الفُرُوجُ وَالأَمْوَالُ وَالدِّمَاءُ إِلَى رَبِّهَا عَجِيجًا؛ تُبَدَّلُ فِيهِ الأَحْكَامُ، وَيُقْلَبُ الحَلَالُ بِالحَرَامِ، وَيُجْعَلُ المَعْرُوفُ فِيهِ أَعْلَى مَرَاتِبِ المُنْكَرَاتِ، وَالَّذِي لَمْ يُشَرِّعْهُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ أَفْضَلِ القُرُبَاتِ، الحَقُّ فِيهِ غَرِيبٌ، وَأَغْرَبُ مِنْهُ مَنْ يَعْرِفُهُ، وَأَغْرَبُ مِنْهُمَا مَنْ يَدْعُو إِلَيْهِ وَيَنْصَحُ بِهِ نَفْسَهُ وَالنَّاسَ».

(٢) أُمَّة وَسَطًا؛ أَي: خِيَارًا. وَالوَسَطُ: العَدْلُ. قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ: «وَلَـمَّا جَعَلَ اللهُ هَذِهِ الأُمَّةَ وَسَطًا خَصَّهَا بِأَكْمَلِ الشَّرَائِعِ وَأَقْوَمِ المَنَاهِجِ وَأَوْضَحِ المَذَاهِبِ».

وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ؛ فَصَدَقَ فِيهِمْ قَوْلُ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:(١) «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ، شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا فِي جُحْرِ ضَبٍّ؛ لاَتَّبَعْتُمُوهُمْ**» قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله! اَلْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ؟ قَالَ: «**فَمَنْ**».

أُمَّةٌ عَطَّلَتْ خَيْرَ هَدْيٍ وَأَعْرَضَتْ عَنْ سُنَّةِ نَبِيِّهَا، وَأَحْيَتْ سُنَنَ الكُفَّارِ وَاتَّبَعَتْهُمْ فِي اللِّبَاسِ وَالعَادَاتِ وَالأَعْيَادِ ...إِلَخ.

أُمَّةٌ تَرَكَتِ الجِهَادَ وَرَضِيَتْ بِالزَّرْعِ وَاتَّبَعَتْ أَذْنَابَ البَقَرِ؛ وَصَدَقَ فِيهِمْ قَوْلُ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:(٢) «**إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ(٣)، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ**».

وَفِي رِوَايَةِ الإِمَامِ أَحْمَدَ: «**... أَنْزَلَ اللهُ بِهِمْ بَلَاءً، فَلَمْ يَرْفَعْهُ عَنْهُمْ حَتَّى يُرَاجِعُوا دِينَهُمْ**»(٤).

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (ح ٣٤٥٦، ٧٣٢٠)، وَمُسْلِمٌ (ح ٢٠٥٤) وَاللَّفْظُ لَهُ. وَقَدْ سَبَقَ.

(٢) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (ح ٣٤٦٢)، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ فِي الصَّحِيحَةِ (ح ١١).

(٣) قَالَ الجَوْهَرِيُّ: «الْعِينُ –بِالْكَسْرِ: السَّلَفُ»؛ كَمَا فِي (عَوْن المَعْبُودِ).

وَالمَقْصُودُ هُنَا صُورَةٌ مِنْ صُوَرِ التَّحَايُلِ عَلَى الرِّبَا.

(٤) وَقَدْ حَسَّنَ ابْنُ القَيِّمِ الإِسْنَادَيْنِ؛ كَمَا فِي تَعْلِيقِهِ عَلَى أَبِي دَاوُدَ.

لَقَدْ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمُ الذُّلَّ وَجَعَلَ عَلَيْهِمُ الصَّغَارَ؛ لِتَرْكِهِمُ الجِهَادَ، وَرُكُونِهِمْ إِلَى الدِّعَةِ، وَمُخَالَفَتِهِمْ لأَمْرِ اللهِ وَأَمْرِ رَسُولِهِ:

كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:(١) «... **وَجُعِلَ الذُّلُّ وَالصِّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي**». وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المُجَادِلَة/ ٢٠] ...

فَأَتْبَاعُ الرُّسُلِ دَائِمًا مَنْصُورُونَ وَمُخَالِفُوهُمْ مَخْذُولُونَ.

***

لَقَدْ آنَ الأَوَانُ؛ لِكَيْ نُرَاجِعَ أَنْفُسَنَا، وَنَخْرُجَ مِنْ غَفْلَتِنَا، وَنَجْتَمِعَ عَلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ؛ لِنُصْرَةِ هَذَا الدِّينِ، وَإِعْزَازِ كَلِمَةِ اللهِ فِي الأَرْضِ، وَتَغْيِيرِ هَذَا (**الوَاقِعِ المَرِيرِ**) الَّذِي تَحْيَاهُ الأُمَّةُ، وَالخَوَاءِ الَّذِي تُعَانِيهِ نَتِيجَةَ انْحِرَافِهَا عَنْ مَنْهَجِ اللهِ.

***

إِنَّ الأَلَـمَ الَّذِي يَعْتَرِي النُّفُوسَ، وَالمَرَارَةَ الَّتِي تَكْسُو الحُلُوقَ، وَالغَضَبَ

---

(١) رَوَاهُ أَحْمَدُ؛ وَهُوَ حَدِيثٌ حَسَنٌ.

وَالحَدِيثُ بِطُولِهِ: عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ بِالسَّيْفِ، حَتَّى يُعْبَدَ اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَ الذُّلُّ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ**».

الَّذِي يَمُورُ فِي الصُّدُورِ، وَالدَّمَ الَّذِي يَغْلِي فِي مِرْجَلِ العُرُوقِ ... كُلُّ ذَلِكَ سَيَكُونُ -بِإِذْنِ اللهِ- بِدَايَةً لِإِشْرَاقِ وَانْبِلَاجِ فَجْرٍ جَدِيدٍ، وَمَخَاضًا لِـ(**مَوْلُودٍ**) جَدِيدٍ يُرَبِّيهِ اللهُ عَلَىٰ عَيْنِهِ؛ لِتَحْقِيقِ مَوْعُودِ اللهِ بِالنَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ لِلْفِئَةِ الْمُؤْمِنَةِ ..... **إِنْسَانٍ** يُعْلِي مِنْ قِيمَةِ المَبَادِئِ وَالقِيَمِ وَالمُثُلِ ... **مُقَاتِلٍ** شَرِسٍ فِي مُوَاجَهَةِ أَعْدَاءِ اللهِ، يَعِيشُ لِلْجِهَادِ، وَيَسْعَىٰ لِلِاسْتِشْهَادِ، بَلِ الشَّهَادَةُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَسْمَىٰ أَمَانِيهِ؛ لِنَشْرِ دِينِ اللهِ فِي أَرْجَاءِ المَعْمُورَةِ، وَ... ﴿**لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ**﴾ [الأَنْفَال/ ٤٢].

***